الفصل الخامس

لا يفكرون كما نفعل نحن

«يُروى أن رجلًا من قبيلة التشو كان يتاجر بالدروع والفؤوس المرمَّحة، فقال في مديح دروعه: دروعي بالغة الصلابة لا شيء يستطيع اختراقها؛ ثم أضاف مادحًا فؤوسه المرمحة: فؤوسي المرمحة بالغة الحدِّة، هي قادرة على اختراق أي شيء. وردًا على كلامه سأله أحدُهم: وماذا عن استخدام فؤوسك المرمحة لاختراق دروعك؟' لم يستطع الرجل أن يقدم أي جواب».

هان فاي تزو، القرن الثالث قبل الميلاد

كان الفيلسوف اليوناني القديم أرسطو يرى القدرة على التفكير القومي (الوطني) واحدة من السمات المحدِّدة للطبيعة البشرية، سمةً مميزة للبشر عن الحيوانات الأخرى، غير أن أرسطو كان أيضًا يرى أن هذه القدرة ليست ذاتها في الأمكنة كلها، وأنماط التفكير اليونانية كانت متفوقة على نظائرها في الثقافات الأخرى، فبرأي أرسطو كان غير اليونانيين، رغم قدرتهم على فهم محاكمة الآخرين، مفتقرين إلى قُدرة

obeikandl.com

اجتراح أفكار عقلانية تخصهم. صحيح أن آراء أرسطو حول تفوُّق أنماط التفكير اليونانية لن تحظى إلا بالقليل من التأييد المعاصر، غير أن المسألة التي أثارها تبقى مستمرَّة في الحياة: هل بُنى الفكر متجانسة أساسًا عبر التغييرات الحاصلة على صعيد السياق الثقافي، أم يوجد شيء من الصواب في الملاحظة التي تتكرر كثيرًا، تلك الملاحظة التي تقول: (هم)؛ أي أولئك الذين يعيشون على الوجه الآخر من العالم ـ لا يفكِّرون مثلما نفكِّر نحن؟

أكثر الأحيان يبقى علماء النفس ميالين إلى تبني نوع من التصور الشمولي التعميمي للفكر الإنساني، الذي يرى سائر أنماط التفكير متماثلة أساسًا في المجتمعات جميعها. أما علماء الأنثروبولوجيا فينزعون ـ بالمقابل ـ إلى أن يكونوا متعاطفين مع التصورات التخصيصية لفكر البشر حيث تكون أنماط التفكير متباينة من نواح ذات شأن من مجتمع إلى آخر؛ فعلماء الأنثروبولوجيا هؤلاء يميلون إلى تسليط الأضواء على الفروق الفكرية بين منتسبي المجتمعات المختلفة، بدلًا من تأكيد الصفات المشتركة (كما يحلو لعلماء النفس أن يفعلوا على نحو أنموذجي).

وحسم السجال بين التعميميين والتخصيصيين بعيد عن أن يكون صريحًا، ويكمن جزءٌ من المشكلة في أن المنطلقات المعتمدة في السجال بالذات مغلَّفة بشيء من الغموض والضبابية؛ ما الذي يعنيه بدقة تباين مجتمعين على صعيد نَمَطَيْ التفكير اللذين يعتمدانهما؟ هل ستكون النزعة التخصيصية فائزة إذا اكتُشف وجود تنوع في أنماط التفكير التي تميل

المجتمعات المختلفة إلى إبدائها، أم إنها لن تفوز إلا إذا تبيَّن أن هناك تنوُّعًا في أنماط التفكير التي تستطيع المجتمعات المختلفة إبداءها؟ أحد أسباب الارتياب الإضافية من هذا الجدل تجريبي: من المدهش أننا لا نعرف إلا القليل جدًّا عن كيفية تفكير البشر عمومًا؛ فالأكثرية الساحقة لبحوث علم النفس المنصبَّة على المحاكمة لا تشمل إلا طلبة الجامعات الأمريكية، وهؤلاء لا يمثلون إلا عيِّنة صغيرة جدًّا ـ ربما هي بعيدة تمامًا عن أن تكون ممثلة ـ من الأسرة البشرية، أما تطبيق نتائج هذه البحوث على البشر عمومًا، فلن يكون مبرَّرًا إلا إذا كنا متأكدين سلفًا من أن أنماط التفكير البشري في الأمكنة جميعها هي ذاتها. يقدِّم الأنثروبولوجيون ـ من جانبهم ـ دراسات ميدانية مفصلة عن أنماط التفكير المعتمدة في ثقافة معينة، إلا أنه من غير الواضح ـ في أكثر الأحيان ـ ما إذا كانت الدراسات الجارية في ثقافة معينة واجبة المقارنة مع نظيرتها الجارية في ثقافة أخرى. باختصار، توجد تحدِّيات مهمة تنتصب في وجه كل من يحاول رَوْز هذا السجال.

سنحاول الإبحار في هذه المياه العكرة بالتركيز على ثلاثة أسئلة؛ أولًا: إلى أي مدى يمكن أن يوجد تنوع اجتماعي الأساس في مضامين الفكر؟ ثانيًا: هل يميل أفراد بعض المجتمعات إلى استخدام أنماط استنتاج لا يستخدمها أفراد مجتمعات أخرى ـ أو ربما لا تستطيع؟ ثالثًا: ما الأثر الذي يمكن للعلاقة بين الفكر واللغة أن تتركه على السجال الدائر بين التصورات التعميمية ونظيرتها التخصيصية للفكر الإنساني؟

مضامين الفكر

من الواضح لكل مراقب طارئ للطبيعة البشرية أنَّ لدى المجتمعات تصورات مختلفة للواقع؛ فالمجتمعات تتباين في معتقداتها الدينية، في وجهات نظرها الفلسفية، وفي نظراتها الأخلاقية والسياسية؛ خذوا مثالًا واحدًا لمثل هذه الاختلافات، انظروا إلى مسألة مدى إمكانية أن تكون مخلوقات غير بشرية مسؤولة حقوقيًّا عن أفعالها: قد نتوهم أن أي حيوان لا يمكن عده مسؤولًا عن أفعاله، غير أن التشريع الحقوقي لأثينا القديمة تضمَّن بنودًا ناظمة لمحاكمة الحيوانات، ومثل هذه المحاكمات لم تكن مجهولة في أوروبا العصر الوسيط.

من الواضح، إذن، أن من الممكن أن يكون البشر متبنين تصورات مختلفة ـ شديدة الاختلاف أحيانًا ـ عن العالم، أما ما يبقى أقل وضوحًا، فهو ما إذا كانت هذه الاختلافات في الفكر محصورة بما يمكننا ـ مع الاعتذار من المخلوقات غير البشرية ـ أن نصفها على أنها جوانب هامشية، أم إنها تشكل أيضًا سمات جوهرية للفكر؛ أي سمات فكرية ناظمة لحياتنا اليومية. تعالوا نعاين هذه المسألة في ضوء ما نعرفه عن مثل هذه المجالات: التفكير بالفضاء والتفكير بالعقول.

يمكن التفكير بالعلاقات المكانية بطريقتين: طريقة مركزية ذاتية وطريقة مركزية جغرافية، تستخدم تصورات المركزية الذاتية للفضاء إطارًا مرجعيًّا متركِّزًا على الذات؛ فمن شأن تصور موقع شجرة ما من منطلق المركزية الذاتية ـ مثلًا ـ أن يمثل الشجرة واقعة إلى اليسار من البيت. (ومن منظور آخر يمكن تمثيل الشجرة ذاتها بوصفها واقعة إلى

اليمين من البيت). أما تصورات المركزية الجغرافية، فتستخدم- بالمقابل- إطارًا مرجعيًّا متركزًا على الأرض؛ فمن شأن تصور موقع شجرة معينة من منطلق المركزية الجغرافية- مثلًا- أن يمثل الشجرة واقعة شمال البيت، هل يمكن للمجتمعات أن تتباين في درجة تقويمها الإيجابي لإحدى طريقتي التفكير بالمكان؟

يرى أستاذ علم نفس اللغات ستيفن لَفِنْسون (Stephen Levinson) أنها تتباين؛ فقد تناول لفنسون ومعاونوه هذه المسألة بمقارنة الطرق التي يعتمدها الناطقون بلغات مختلفة في التفكير بالمكان. بعض اللغات تفضل تصورات المركزية الذاتية للمكان، فمع أن الإنجليز والهولنديين- على حد سواء- يدعمون القدرة على ألوان الوصف القائم على المركزية الجغرافية - وبالفعل فقد استخدمت وصفًا كهذا في الفقرة السابقة! - فإن الناطقين بهاتين اللغتين شديدو التفضيل لعبارات المركزية الذاتية عند وصف العلاقات المكانية بين الأشياء في بيئاتهم المباشرة، وثمة لغات أخرى شديدة النزوع، بالمقابل، إلى تفضيل إطار مرجعي جغرافي التمركز. ناطقو التزلتال؛ إحدى لغات المايا المتداولة في المكسيك- مثلًا- نادرًا ما يستخدمون (إذا فعلوا بالمطلق) عبارات دالة على (اليسار) و(اليمين)؛ فالناطقون بهذه اللغة لن يقولوا هات القدح الذي هو على يسارك! بل هات القدح الموجود جهة الشمال!

هل يمكن لهذا التضارب اللغوي أن يكون مصحوبًا بتضارب موازٍ في نمط تفكير أصحاب هذه اللغات بالمكان؟ تولى لفينسون وزملاؤه استكشاف هذه المسألة، بمقارنة المحاكمة المكانية لدى ناطقي اللغة

الهولندية بنظيرتها لدى ناطقي لغة التزلتال. عُرضت على المشاركين بطاقة على طاولة عليها نقطة حمراء يسار/ شمال نقطة زرقاء، ثم جرى تدوير المشاركين (180) درجة لمواجهة طاولة ثانية، حيث طُلب إليهم أن يختاروا من كومة بطاقات البطاقة (المماثلة) لتلك التي سبق لهم أن رأوها للتو، إحدى البطاقات التي كان بوسعهم الاختيار منها حملت نظامًا بالتوجه الذاتي المركز (أي يمين- يسار) شبيهًا بما في البطاقة الهدف، ولكن بتوجه جغرافي المركز (أي شمال- جنوب) مختلف، في حين أن بطاقة أخرى حملت التوجه الجغرافي المركز نفسه، ولكن مع توجه ذاتي المركز مختلف. اختار ناطقو التزلتالية- إحدى لغات المكسيك- بأكثريتهم الساحقة، التوجه الجغرافي المركز الشبيه بالهدف نفسه، في حين كان اختيار الأكثرية الساحقة من ناطقي الهولندية البطاقة ذات التوجه الذاتي المركز الشبيه بالهدف ذاته، واستنادًا إلى هذه وغيرها من اللُّقى، يقترح لفينسون أن ناطقي اللغات الجغرافية المركز يفكرون بالمكان وفق طرق مختلفة جذريًّا عن تلك التي يعتمدها ناطقو اللغات الذاتية المركز.

ليس هذا الزعم إشكاليًّا على أي حال؛ فمن الممكن- مثلًا- تفسير الأداء المتضارب لناطقي التزلتالية من جهة وناطقي الهولندية من الجهة الأخرى، بافتراض إقدامهم على تبنّي فرضيتين مختلفتين عما يعنيه التماثل في هذا السياق؛ ربما افترض ناطقو التزلتالية أنهم وُجهوا إلى مطابقة الهدف مع بطاقة تحمل البنية المركزية الجغرافية ذاتها، في حين افترض ناطقو الهولندية أنهم وجهوا إلى مطابقة الهدف مع بطاقة تحمل البنية المركزية الذاتية نفسها، ولعل الأهم أنه يوجد ما يشير إلى أن ناطقي

التزلتالية يستطيعون التفكير بالعلاقات المكانية من منطلق المركزية الذاتية، وقد اختبرت عالمتا النفس بيغي لي وآنا بابافراغو (Peggy Li& Anna Papafragou) هذه الإمكانية بتزويد ناطقي التزلتالية بمشكلات لا تحلُّ إلا بمحاكمة جغرافية المركز، صحيح أن الناطقين بالتزلتالية قد لا يتحدثون بعبارات مركزية ذاتية، غير أنهم يَبدون كاملي القدرة على التفكير من منطلق مركزية ذاتية.

لنتحول الآن إلى ناحية جوهرية أخرى من نواحي الفكر الإنساني: التفكير بالعقل. من الممكن القول إنه يوجد قدر أكبر من التنوع في كيفية تفكيرنا بالعقل بالمقارنة مع كيفية تفكيرنا بالمكان؛ إذ يعدُّ الموتى في بعض الثقافات- مثلًا- قادرين على التأثير في أفكار الأحياء وأنماط سلوكهم، في حين أن فرضية كهذه ليست واردة نموذجيًّا في المجتمعات الغربية المعاصرة، يوجد أيضًا تباين ثقافي في كيفية عدِّ عقل أحد الأشخاص قادرًا على التأثير في عقل شخص آخر. وفي المجتمع الغربي المعاصر يُفترض- بوجه عام- أن المرء لا يستطيع التأثير في أفكار شخص آخر إلا بنوع من أنواع القنوات الإدراكية (التحدث معه مثلًا)، في حين أن ثقافات أخرى ترى أن أشخاصًا معينين يمتلكون قوة التأثير في عقول آخرين دون أي احتكاك إدراكي. مرة أخرى، توجد ثقافات تفترض أن الإدراك البشري محصور بخمس قنوات حسِّية معترف بها بوجه عام، في حين أن ثقافات أخرى تجيز احتمال كون أفراد معينين يمتلكون طاقات إدراكية فوق حسية، ويتمتعون بالقدرة على رؤية وسماع أشياء بعيدة عن متناول الإدراك الطبيعي. حقًّا، توجد ثقافات يُعتقد فيها أن الردود العاطفية لأحد

الأشخاص قادرة على التسبب بالمرض لآخرين؛ فشعب الآيفالوك في جزر ميكرونيزيا في المحيط الهادئ- مثلًا- يعتقدون بأن فقد الأقارب يؤدي إلى مرضهم.

يوجد أيضًا ما يشير إلى أن الأعضاء في ثقافات مختلفة يميلون إلى التفكير بالعلاقة بين العناصر وبيئاتها بطرق متباينة تباينًا دقيقًا؛ ففي سبعينيات القرن العشرين لاحظ علماء النفس الاجتماعي أن أكثر الناس يبالغون في تأكيد مدى أن تكون ألوان سلوك الناس تجليات لطباعهم الشخصية - تلك السمات الكامنة في أعماق شخصياتهم - بدلًا من أن تكون ناجمة عن ملامح طارئة لبيئاتهم؛ يميل الناس- مثلًا- إلى افتراض أن سلوك المرء العصبي في سياق مقابلة وظيفية دليل على أنه ذو مزاج عصبي، غافلين عن أن المقابلات الوظيفية بيئات مشحونة بالكَرْب تستثير حتى أكثر الأفراد بُعْدًا عن قابلية الاستفزاز. ونزوع الناس إلى تأكيد تفسيرات السلوك مزاجية الأساس على حساب العوامل البيئية بدا بالغ القوة، حتى بات يحمل عنوان (خطأ الإحالة الأساسي)، غير أن بحوثًا حديثة أوحت بأن (خطأ الإحالة الأساسي) قد يكون بعيدًا عن الاتصاف بالأساسية، فهذا الخطأ يبدو واضح البروز في مجتمعات قائمة على تأكيد الاستقلال الفردي بدلًا من تمييز البشر عمومًا، وهو أقل قوة بكثير - بل وغائب كليًّا ربما - في ثقافات تؤكد الفعل الجماعي والامتثال للمعايير الاجتماعية.

يوجد إذن بعض التباينات بين الأساليب المعتمدة من قِبَل أعضاء ثقافات مختلفة على صعيد التفكير بالعقل، إلا أن من شأن هذه الفروق

أن تكون استثناءات بارزة على خلفية تماثلية عابرة للثقافات؛ فبمقدار ما نعلمه يقوم البشر في سائر الأمكنة بتفسير سلوكهم الخاص من جهة وسلوك أترابهم من جهة ثانية باستحضار الاعتقاد، والرغبة، والقصد، والإدراك، والعاطفة، والذاكرة، والخيال، وعلى الرغم من وجود قدر من الاختلاف حول العمر الذي يكتسب فيه الأطفال في الثقافات المختلفة هذه المفاهيم، فلم ينجح أحد بعد في إماطة اللثام عن مجتمع لا يكون فيه نوع من الفهم القوي للمقولات العقلية راسخًا بثبات عند انتهاء مرحلة الطفولة، أقله بمقدار ما يتعلق الأمر بالمكان والذهن، تبدو الفروق العابرة للثقافات في الفكر ـ وهي على حالها ـ استثناءات لإطار أعم من التماثل العابر للثقافات.

أنماط الاستنتاج أو الاستدلال

لننتقل من الأفكار إلى التفكير؛ هل يمكن لأفراد أحد المجتمعات أن يحاكموا على نحو مختلف جذريًّا عن أفراد مجتمع آخر؟ حقًا، هل يمكن لأفراد بعض المجتمعات أن يُخْفقوا ببساطة في التقاط قوة أنماط معينة من الاستدلال؟

شخصيات نافذة في تاريخ (الأنثروبولوجيا) ردت بالإيجاب عن هذين السؤالين؛ ففي كتابه كيف يفكر السكان الأصليون (How Natives Think) المنشور سنة 1910م، رأى (الأنثروبولوجي) الفرنسي لوسيان ليفي- برول (Lucien Lévy_Brühl) أن شعوب ما قبل الكتابة والقراءة ضعيفة الاستعداد للتفكير المنطقي، وأن أفرادَ مثلِ هذه المجتمعات كانوا

غير مثقفين على صعيد اتباع سلسلة محاكمة على أدنى درجات التجريد. وفي ثلاثينيات القرن العشرين اختبر عالم النفس الروسي الكساندر لوريا (Alexandar Luria) هذه المزاعم بمعاينة ما إذا كانت جماعة من الفلاحين الأميين في أوزبكستان قادرة على التقاط العلاقات المنطقية بين القضايا، وقد أَطْلَعَ لوريا في مجموعة من الدراسات الفلاحين على حقيقة أن الدببة في الشمال البعيد جميعها بيضاء، وأن نوفايا زملیا (Novaya Zemlya) واقعة في الشمال البعيد، ثم سأل الفلاحين عن لون الدببة في نوفايا زملیا، أولئك الذين توصلوا إلى الاستنتاج الصحيح كانوا أقل من (30) بالمئة، وأجاب بعضهم معبرين عن جهلهم للون الدببة، وقيل إن أحد الفلاحين رد قائلًا: «أنت رأيتها، أنت تعرف، أما أنا فلم أرها، كيف لي أن أعرف؟»، ولم يجد- بالمقابل- أفراد من المجتمع نفسه سبق لهم أن تلقوا تعليمًا رسميًّا أي صعوبة في حل مشكلات المحاكمة التي طرحها لوريا عليهم.

استنتج لوريا أن الفلاحين مفتقرون إلى مهارات المحاكمة، وتوصل إلى الخلاصة الأعم التي تقول إن التعليم الرسمي شرط لإتقان فن المحاكمة المجردة. ومع أن الاعتقاد بأن التعليم الرسمي يرعى قُدرة أي فرد للمحاكمة المجردة اعتقاد معقول جدًّا بالتأكيد، فإن إظهار دراسات لوريا لبقاء أولئك الذين لم يتلقوا تعليمًا رسميًّا عاجزين عن المحاكمة المجردة بعيد عن أن يكون واضحًا.

نقطتان ينبغي تذكرهما عند النظر في نتائج لوريا؛ أولًا: التفكير الواعي مُتْعِب ويتطلب جهدًا، لاسيما حين يعاين المرء موضوعات غير

مألوفة، وحقيقة أن الفلاحين الذين قابلهم لوريا كانوا شديدي الضعف في الأداء ربما يعود إلى مستويات تحريضهم ـ مدى قدرتهم على رؤية الجدوى من بذل الجهد على مسائل لم تكن ذات تأثير واضح في حياتهم ـ أكثر من عودته إلى قدرتهم على التقاط الحجج المعروضة عليهم. ثانيًا: إن الأسئلة الوحيدة التي يطرحها الناس في سائر الثقافات هي تلك التي لا يعرفون أجوبتها كما لاحظ جيوفري لويد (Geoffrey Lloyd). وفي ضوء ذلك يستطيع المرء أن يتساءل: عما إذا لم يفهم الفلاحون أن لوريا قد طرح سؤاله: ما لون دببة نوفايا زمليا؟؛ ليكشف عن جهله لون الدببة في أقصى الشمال، بما يؤدي إلى إلقاء ظل من الشك على تأكيده الأول ـ وهو تأكيد كان شاملًا بصيغته شمولًا يجعل التحقق من صوابه صعبًا ـ المتمثل بأن الدببة في الشمال البعيد جميعها بيضاء. ربما شعر الفلاحون بالقلق فعلًا متخوفين من أن يَبْدوا مغَفَّلين إذا ما بادروا ببساطة إلى التسليم بمزاعم لوريا؛ فهم لم يسبق لهم أن كانوا في الشمال البعيد، ولم يقدِّم لوريا أي دليل داعم لأقواله: ما الذي يُلْزِمُهم بقبولها كما هي؟ ثمة دراسات أحدث للمحاكمة في مجتمعات أمِّية (لا تعرف القراءة ولا الكتابة)، حاولت مقاربة هذه الهواجس عن طريق مطالبة المشاركين بعقد محاكمة حول أوضاع أمور تحصل على كوكب خيالي، حيث إن طرح الأسئلة على هذا النحو يقود إلى تحسين الأداء، بما يوحي بأن أداءهم الضعيف حول مشكلات غير افتراضية يمكن تبريره بأنواع العوامل البراغماتية المذكورة أعلاه، وقد لا يعكس أي عجز مطلق عن الانخراط في تفكير مجرد أو بلا سياق.

في السنوات الأخيرة ظل الجدل بين الروايتين التعميمية والتخصيصية لقصة الاستنتاج البشري متركزًا لا على التباين بين المجتمعات المتعلمة ونظيرتها الأمية، بل على الاختلاف بين الشرق والغرب؛ فعلى امتداد عدد من السنوات بقي عالم النفس ريتشارد نِسْبَت ومعاونوه دائبين على قول إن هناك فروقًا كبيرة بين طرق تفكير سكان شرق آسيا؛ (أي اليابانيين، والصينيين، والكوريين) وطرق تفكير الغربيين. ويصف نِسْبَت مع زملائه هذه الفروق قائلين إن الشرق- آسيويين يميلون إلى أن يفكروا بطريقة شمولية، في حين ينزع الغربيون إلى التفكير تحليليًّا. وما الذي يعنيه أن يقال إن الشرق- آسيويين يفكرون بطريقة كلية، والغربيين يفكرون بطريقة تحليلية؟ برأي نِسْبَت وزملائه يميل (الشرق- آسيويين) إلى الاهتمام أكثر بالنواحي السياقية لأي وضع، في حين ينزع الغربيون إلى التركيز على عناصره البؤرية أو المحورية؛ يميل الشرق- آسيويون إلى جمع الأشياء استنادًا إلى علاقاتها، في حين ينزع الغربيون إلى حشد الأشياء من منطلق انتسابها إلى فئة مشتركة؛ ويميل الشرق-آسيويون إلى التعليل من منطلق التشابه، في حين ينزع الغربيون إلى التحليل بالاستناد إلى قواعد.

يسوق نسبت (Nisbett) ومعاونوه سلسلة من الأدلة المؤيدة لهذه المزاعم؛ ففي إحدى الدراسات عرضت ثماني صور ملونة متحركة على طلاب أمريكيين ويابانيين، كانت كل صورة مشتملة على عدد من الأشياء البؤرية على صورة أسماك كبيرة، وبراقة، وسريعة الحركة، مع عدد من الأشياء غير البؤرية بأشكال صخور، وفقاعات، وحيوانات بطيئة الحركة، وبعد عرض المشاهد لمدد زمنية وجيزة طُلب إلى المشاركين أن يفصحوا

عما رأوه، ومع أن الطلاب الأمريكيين واليابانيين أدلوا بإشارات شبه متساوية إلى الأسماك، فإن إشارات الطلاب اليابانيين إلى أشياء الخلفية كانت الضُّعْف تقريبًا. يضاف إلى ذلك، في حين أن الطلاب اليابانيين كانوا ـ بوجه عام ـ يبدؤون بوصف المشهد بصورة كلية (يبدو أشبه ببحرة)، كان الطلاب الأمريكيون يبدؤون بوصف الأشياء البؤرية (ثمة سمكة كبيرة، لعلها ترويت، سابحة نحو اليسار).

الشكل: 4 حيث الصور المتحركة بالأبيض والأسود

وفي دراسة أخرى عُرض على طلاب الكلية حُزَم من ثلاث كلمات، مثل باندا، وقرد، وموز، وسئلوا عن الكلمتين الأكثر ترابطًا. بوجه عام، وضع الطلاب الأمريكيون الباندا والقرد في خانة واحدة، موحين بتفضيلهم

obeikandl.com

وصف الأشياء من منطلق انتسابها المشترك إلى فئة مشتركة، في حين كان الطلاب الشرق- آسيويون ميالين إلى جمع القرد مع الموز، موحين بتفضيلهم وصف الأشياء بالاستناد إلى علاقاتها.

الشكل 5: تصنيف تشابه عائلي مقابل أساس قاعدي

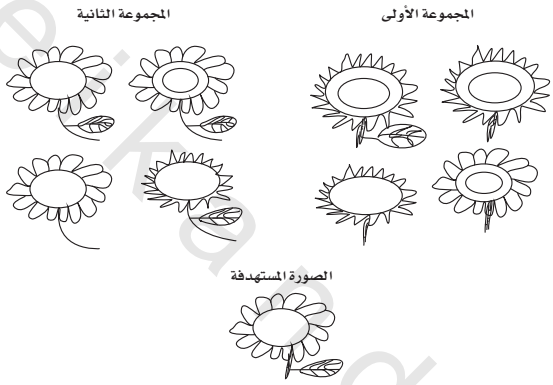

دراسة ثالثة عاينت الممارسات الاستقرائية للطلاب الشرق- آسيويين الأمريكيين؛ عُرضتْ على الطلاب لوحة في أسفلها صورة الهدف فوقها مجموعتان من الصور، ثم طُلب إلى الطلاب تحديد أي المجموعتين كانت الصورة الهدف هي الأقرب إليها أو المعطوفة عليها.

توجد طريقتان محتملتان للإجابة عن هذا السؤال، يستطيع المرء- متبنيًّا مقاربة المتشابه العائلي- استهداف الورود الموجودة إلى اليمين (هي إلى اليسار في الأصل الأجنبي)؛ لأن صورة الهدف أكثر شبهًا عائليًّا بهذه الورود، أما تبني مقاربة الأساس القاعدي فمن شأنه أن يدفع المرء نحو وضع صورة الهدف في خانة الورود الموجودة في المجموعة الموجودة

إلى اليسار (هي على اليمين في الأصل الأجنبي)؛ لأن هناك ملمحًا بسيطًا تتقاسمه الصورة الهدف مع هذه الأشياء جميعها؛ لها ذيل مستقيم. عمدت أكثرية الطلاب الشرق- آسيويين إلى تصنيف الصورة الهدف من منطلق الشبه العائلي، في حين صنَّفها الطلاب الأمريكيون من أصل أوروبي بالاستناد إلى القاعدة. (من اللافت أن أداء الأمريكيين من أصول آسيوية كان وسطًا بين أداء الطلاب الشرق- آسيويين من جهة وأداء الطلاب الأمريكيين ذوي الأصول الأوروبية من جهة ثانية).

من المؤكد أن هذه الدراسات محرضة للتفكير، ولكن ماذا عن مدى قدرتها على بيان أن الشرقيين والغربيين يحاكمون بطريقتين مختلفتين نوعيًّا، كما يزعم نسبت؟ ثمة أسس للحذَر.

أولًا: لا يبرز التنافر بين أنماط تفكير شرقية من ناحية، وأخرى غربية من ناحية ثانية إلا حين ينظر المرء إلى أداء الجماعات، يوجد طلاب شرق- آسيويون كثيرون يقدمون أجوبة مطابقة لأجوبة الطلاب الأمريكيين، والعكس صحيح.

ثانيًا: لا يوجد إلا القليل من الترابط بين مستويات كاملية أداء أي فرد لمهمات متنوعة؛ وبعبارة أخرى، أفراد كثيرون يحاكمون كامليًّا' في سياقات معينة، ولا يفعلون ذلك في سياقات أخرى، وهذا يوحي بأن التمييز بين نمطي التفكير هذا بالذات تمييز ينطوي على شيء من اللبس.

obeikandl.com

ثالثًا: تركز هذه الدراسات على الطلاب الجامعيين (قبل التخرج)، ومن شأن أسلوب تفكير الطلاب الجامعيين في أي مجتمع ألا يكون ممثلًا لأسلوب تفكير أفراد ذلك المجتمع عمومًا.

أخيرًا: بمقدار ما تكون ممارسات محاكمة الطلاب الشرق- آسيويين مختلفة عن نظيرتها لدى الطلاب الأمريكيين، فإن هذه الفروق لا تبدو ثابتة بل قابلة للقلب بسهولة. تمامًا كما يمكن للطلاب الأمريكيين أن يكونوا جاهزين سلفًا لعطف القرد على الموز، يمكن للطلاب الشرق- آسيويين أن يكونوا جاهزين سلفًا لعطف القرد على الباندا؛ وتمامًا أيضًا كما يمكن توجيه الطلاب الشرق- آسيويين نحو التمييز بالاستناد إلى القواعد، يمكن توجيه الطلاب الأمريكيين إلى التصنيف من منطلق الشبه العائلي؛ بعبارة أخرى حتى إذا كان الشرق- آسيويون والأمريكيون ميالين إلى إضفاء صفة الأولوية على مقولات إدراكية، فإنهم يظهرون حريصين على بقاء الحزمة نفسها من إستراتيجيات الاستدلال تحت تصرفهم، من المؤكد أن الحجج التحليلية ليست مجهولة في تاريخ الفكر الصيني كما تبين الصورة التي تتولى مهمة التمهيد لهذا الفصل.

اللغة والفكر

يتمثل جانب آخر من جوانب الجدل الدائر بين التخصيصيين والتعميميين بالعلاقة بين الفكر واللغة؛ إذ يوجد سبب وجيه لتوقع فروق فكرية عابرة للثقافات إذا كانت بنية الفكر مجوَّدة أو مرنَّمة ببنية اللغة - كما جادل عدد كبير من أرباب التنظير - لأن المجتمعات تتباين تباينًا

واضحًا باللغات التي تتكلمها. ولكنْ، هل تتعرض بنية الفكر للتعديل أو التجويد أو التتبيل ببنية اللغة؟

لعل هذه هي المسألة الأكثر إثارة للسجال بين سائر المسائل الكثيرة الخلافية المتعلقة بطبيعة الفكر، مع أن من المتفق عليه أنَّ لإتقان أي لغة طبيعية تأثيرًا تحويليًّا في الفكر (كما لاحظنا في الفصل السابق)، لا يوجد أي توافق حول ما إذا كانت التباينات بين اللغات ذات تأثير في بنية الفكر، كيف، وإلى أي مدى؟ بعضُ المنظّرين يرون تأثيرات اللغة في الفكر عميقة وأساسية، في حين يعتقد آخرون أن الفروق بين اللغات تافهة بمقدار ما يكون الأمر متعلقًا بالفكر. وكما هو الأمر بالنسبة إلى الكثير من النقاشات، فإن من المحتمل أن تكون الحقيقة واقعة في مكان ما من الوسط.

يعرف الزعم القائل بأن السمات الهيكلية لأي لغة تؤثر تأثيرًا ذا شأن في تشكيل الفكر بالوورفية؛ تكريمًا للغوي الأنثروبولوجي بنيامين وورف (Benjamin Whorf)، الذي أبرز الفكرة منتصف القرن الماضي، إلى وقت غير بعيد لم تكن الوورفية تحظى بقدر كبير من الترجيح أو التفضيل في إطار العلم الإدراكي؛ وأحد أسباب هذا يعود إلى البحث الذي أجراه برنت برلين وبول كي (Brent Berlin& Paul Kay) في ستينيات القرن العشرين حول الفروق العابرة للغات في إدراك اللون. اكتشف برلين وكي أنه توجد على ما يبدو كليات عابرة للثقافات في بنية مصطلحات اللون، على الرغم من أن اللغات تتباين في عدد تعابير اللون التي تستخدمها. إذا امتلكت لغة ما تعبيري لون، فإن من شأن هذين التعبيرين أن يدلا على الأسود والأبيض؛ وإذا امتلكت لغة ما ثلاثة تعابير، فإن التعبير الثالث سيدل

حكمًا على الأحمر؛ أما إذا كانت لغة معيّنة تمتلك أكثر من ثلاثة تعابير لغوية، فإن التعابير الإضافية ستكون مشيرة إما إلى الأخضر، أو الأزرق، أو الأصفر، وهذا يعني أن وجود أي تأثير بين بنية اللغة وبنية العقل يشير حكمًا إلى أن الثاني؛ أي العقل، هو الذي يؤثر في الأولى؛ أي اللغة، بدلًا من العكس.

ومع أن هذا الاكتشاف عُدَّ على نطاق واسع دليلًا على أن الفكر مستقل عن اللغة، فإن تلك الاستجابة تبدو الآن متسرِّعة بعض الشيء؛ ذلك لأن أدلة حديثة أوحت بأن من شأن إدراك اللون ألا يكون كامل البراءة من التأثير اللغوي؛ اهتدت دراسات ـ مثلًا ـ إلى أن التنافر بين إدراك الأزرق السماوي (الفاتح) والأزرق النيلي (الداكن) يبقى أكثر بروزًا عند الناطقين بالروسية، لغة يتمايز فيها الأزرق السماوي عن الأزرق النيلي بتعبيرين مختلفين، منه بالنسبة إلى ناطقي الإنجليزية حيث يعد اللونان ظلين للأزرق، إلا أن ما ينطوي على قدر أكبر من الأهمية هو وضوح خطأ الاستنتاج القائل بعدم تأثير اللغة في الفكر لمجرد أنها لا تؤثر في إدراك اللون. إذا كانت للغة أي تأثيرات في البنية العقلية آخر المطاف، فإن الأكثر احتمالًا على نحو قَبْلي العثور على هذه الآثار في تلك العمليات العقلية المتغيرة نسبيًّا، وذات جذر تطوري أحدث من أجزاء العمارة العقلية تلك الأقدم بكثير والأكثر استقرارًا.

قد لا يوجد أي سبب وجيه يدعو إلى نبذ وجهة النظر الوورفية؛ ولكن، هل يوجد سبب وجيه للاعتقاد بأنها صائبة؟ يخرج أحد إيحاءات الظن بقدرة بنية أي لغة على تشكيل أفكار ناطقيها من رحم إحدى الدراسات حول

قوالب التمثيل لدى ثنائيي اللغة الناطقين باللغتين الصينية والإنجليزية، فقد تولى القائمون على الاختبار ابتكار سلسلة من الأوصاف الشخصية، بعضها قابل للالتقاط بوساطة عنوان مؤلف من كلمة واحدة بالإنجليزية (مثل فني أو ليبرالي) ولكنه ليس كذلك بالصينية، وبعضها الآخر قابل للالتقاط بوساطة عنوان مؤلف من كلمة واحدة بالصينية ولكنه ليس كذلك بالإنجليزية، أُعطي المشاركون بعد ذلك عددًا من هذه الصفات لقراءتها إما بالإنجليزية وإما بالصينية، وبعد خمسة أيام سئلوا أسئلة متنوعة عن الأنماط الشخصية التي قرؤوها؛ فصدرت عن المشاركين إحالات أكثر، وبدت منهم قدرة أكبر، على الصور المتضمنة وصفًا مؤلفًا من كلمة واحدة مقارنة بالصور الخالية من مثل هذا الوصف؛ بعبارة أخرى يبدو أن قراءة الوصف بهذه اللغة دون تلك ذات تأثير في مدى تفعيل قوالب معينة.

يوجد المزيد من الدلائل المؤكدة للتأثير اللغوي في الفكر تأتي من دراسات الإدراك الرياضي (نسبة إلى الرياضيات)؛ مجموعة من الدراسات استكشفت تأثير مفردات الأرقام في لغة معينة في وتيرة اكتساب الأطفال للكفاءة الرياضية، وقد قيل إن لدى الأطفال الناطقين بالإنجليزية قدرًا أكبر من الصعوبة في تعلم العد من 10 إلى 20 مقارنة بنظرائهم الناطقين بالصينية؛ لأن كلمات الأرقام الصينية في هذه المرحلة أكثر نظامية من التعابير الإنجليزية؛ (فالعبارة الصينية الدالة على الرقم 11ـ مثلًا ـ هي واحد وعشرة). دراسات أخرى اكتشفت أن الأطفال مزدوجي اللغة الناطقين بالويلزية والإنجليزية يكونون ذوي أداء أرقى حين

يحسبون بالإنجليزية بدلًا من الويلزية، وهو اكتشاف ربما يفسره واقع أن كلمات الأرقام بالويلزية أطول بكثير من نظيرتها الإنجليزية.

غير أن تأثير اللغة الأعمق في الفكر الرياضي ربما يقوم على مدى غنى قاموس اللغة ـ مفرداتها، وكما سبق لنا أن لاحظنا في الفصل السابق، توجد أنواع لا إنسانية كثيرة تستطيع تمثيل علاقات رياضية على نحو تقريبي، وليس مفاجئًا إذن أن تكون هذه القُدرة حاضرة في مجتمعات ذات أرصدة فقيرة من المفردات، ودليلنا على هذا مستمد من دراسات تناولت لغات البيراها والموندوروكو الأمازونية؛ ليس في الموندوروكوية أي أرقام صحيحة لما يزيد على ألـ 5، في حين لا تبدو البيراهاوية متوافرة ولو على الرقمين 1 و 2، وهذا الافتقار لتعابير الأرقام في هاتين اللغتين مصحوب على ما يبدو بالتقاط مدهش الهزال للعلاقات الرياضية. يبدو ناطقو الموندوروكوية ـ مثلًا ـ عاجزين عن الوقوف على أن طرح 4 بنود من 6 بنود يُبقي بندين أو بندًا واحدًا، أو لا شيء بالمطلق. ومع أن البيانات هنا لاتزال مغلَّفة بشيء من اللايقين، فإن البحوث توفر قدرًا من الإيحاء بأن من شأن امتلاك كلمات دالة على الأرقام أن يكون شرطًا لحيازة قابلية محاكمة العلاقات الرياضية من منطلقات مضبوطة.

إلى أين يوصلنا ذلك؟ هل الفكر البشري هو نفسه في الأمكنة جميعها في الأزمان كلِّها (كما يزعم التعميميون)، أم إن طبيعة هذا الفكر متباينة من نواحٍ ذات شأن من هذا السياق الثقافي إلى ذاك (كما يجادل التخصيصيون)؟

يتوقف الجواب على المنظور المعتمد؛ فالرواية التعميمية تبدو مقنعة جدًّا حين نعاين قدراتنا الإدراكية الأساسية، مثل القدرة على رَوْز العلاقات المنطقية بين الفرضيات أو القدرة على جمع أشياء بالاستناد إلى علاقاتها أو انتسابها المتبادل إلى فئة مشتركة، وعلى الرغم من أن هناك ما يشير إلى وجود تباين اجتماعي الأساس في أنماط الاستدلال التي يكون الأفراد شديدي النزوع إلى احتمالها، فلا يوجد ما يؤكد أن أفراد مجتمع معين يستخدمون أنماط استدلال بعيدة عن متناول إدراك أفراد مجتمع آخر.

بالمقابل، لا شك أن المجتمعات تتباين في مستوى الأفكار المتاحة عمليًّا لأفرادها؛ فكما لاحظنا للتو، من شأن حضور تعابير الأرقام في أي مجتمع أن يكون ذا تأثير جذري في القابليات الرياضية لأفراده، غير أن الكلمات ليست الأدوات الوحيدة التي تؤدي إلى توسيع مدى الفكر؛ لأن الفكر البشري منظَّم بطرق كثيرة؛ إنه منظَّم بممارسات منقولة ثقافيًّا، مثل عادة استخدام الأصابع لعد أفراد فريق معين، أو ممارسة تذكر قائمة عن طريق تخيل وضع كل من أعضائه في غرفة منفصلة من غرف البيت. يبقى الفكر منظَّمًا بمؤسسات اجتماعية، مثل المدارس، والجمعيات العلمية، ودور النشر؛ إنه منظَّم بمختلف أنواع الابتكارات التقنية، مثل السدسية، والمسطرة المنزلقة، والهاتف الذكي، وهكذا فإن الأفكار المتاحة سلفًا لأفراد هذا المجتمع من شأنها، وإن بقيت القدرات الإدراكية لدى البشر ثابتة أساسًا من بيئة إلى أخرى، أن تختلف جذريًّا عن نظيرتها المتاحة لذلك المجتمع؛ لأن مناطق فضاء الإدراك المتاحة لأي شخص متوقفة لا على قدراته الإدراكية وحسب، بل وعلى جملة الأساليب المعتمدة في هيكلة تلك القدرات، وهياكل الفكر ليست هي ذاتها في الأمكنة كلِّها.